

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الثالث عشر

سورة يوسف

من الآية ٥٣ حتى نهايتها الآية ١١١

وسورة الرعد

وسورة إبراهيم

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ قالها يوسف (عليه السلام) راجعاً بالفضل إلى رحمة الله الغفور الرحيم، فكل نفس أمارَةٌ بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عندئذ قال الملك: أحضروه لى ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أخصه لنفسى ناصحاً ومشيراً ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ إنك عندى ذو مكانة قوية، أثق فى أمانتك، عندئذ قال له يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ اجعلنى مسئلاً عن خزائن مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ خير من يحفظها ﴿عَلِيمٌ﴾ عالم بتنميتها. قال محمد الغزالى: [ونلاحظ أن يوسف عرض الخصائص النفسية والعلمية التى ترشحه للمنصب؛ فهو ليس عابداً عفيفاً فقط، بل صاحب خبرة فى شئون المال، يعرف كيف يحصله وكيف يوزعه. وقد أباح لنفسه طلب المنصب، لأنه ليس هناك من هو أحق به منه، ومن المصلحة العامة أن توضع الأمور فى القوى الأمين بدل أن توضع فى يد عاجز قليل الخبرة] وكان الغزالى يرد على من رأى تعارضاً بين قول يوسف (عليه السلام)، وما جاء فى الحديث النبوى «إنا لا نستعين فى عملنا من سألناه» رواه أحمد، فالحديث ينهى عن تولية أمور المسلمين من أرادها لمصالحه الشخصية، سواء جاهاً وسلطاناً ونفوذاً، أو مالاً وثروة، أو شهرة، وليس من أرادها لخدمة الناس تكليفاً وليس تشريعاً ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ قائماً على ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ بعد أن كان حبيساً فى ظلمات البئر، من بعد ظلمات حسد إخوته، يتصرف فيها كما يشاء وحيث يشاء، والله يسبغ رحمته على من يشاء، وهو لا يضيع أجر المحسنين ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧).



﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (٦٠) قَالُوا سَرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ (٦١)

أتت السنوات العجاف التي رآها الملك في حلمه، وأصاب الجذب والقحط الأقاليم المجاورة لمصر، ومنها الأرض التي عاش فيها يعقوب (عليه السلام) وأهله، فلجأوا إلى مصر يطلبون القوت ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ عرف وجوههم، ولكنهم لم يعرفوه فقد كبر وتغير حاله ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ لما جهَّزَ فتیان يوسف لهم الطعام الذي يريدونه قال لهم: ﴿ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ألم تروا أنى أوفيت لكم الكيل، وأنى أكرمت وفادتكم ونزولكم ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ فإن لم تفعلوا، فلن تأخذوا شيئاً، ولن تقابلوني مرة أخرى ولا تدخلوا أرضى، ويظهر من السياق أنهم أخذوا طعامهم تلك المرة واشترط عليهم يوسف (عليه السلام) لفتيانه برد بضاعتهم؛ لأنه لو كان منعهم الطعام فما كان ليأخذ ثمنه، ولما احتاج أن يأمر، والله أعلم، فقالوا: ﴿ سَرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لَفَتْيَانَهُ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَالَلَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦٤)

أراد يوسف أن يطمئنهم لرجوهم إليه بأخيه، حتى يأخذوا طعاماً في المستقبل، فأمر فتيانه أن يضعوا ما أحضره ثمناً لطعامهم في رحال دوابهم، لعلهم بذلك يعودون ومعهم أخو يوسف الشقيق الأصغر منه، وعندما عادوا لأبيهم قالوا أسفين: ﴿ يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ظاهر السياق أنه منع منهم الطعام، فلم يأتوا به، وأن المعنى المقصود منعت من زيادة الطعام، أو شراء الطعام في المستقبل، وطلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم حتى يحضروا الطعام، وطمأنوا أباهم بأنهم سيحفظون أخاهم، فتذكر يعقوب (عليه السلام) يوسف (عليه السلام) وتحسر قائلاً: ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ

قَبْلُ؟ ثم استرد هدهوه وثقته العظمى فى الله، فقال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وكأنه يدعو الله أن يحفظه وأولاده برحمته، فهو أرحم الراحمين. قال الزمخشري: [﴿حَافِظًا﴾ تمييز، كقولك: هو خيرهم رجلاً، ولله دره فارساً، ويجوز أن تكون حالاً].

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُتَوَّنَ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ لِتَأْتِنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

لما فتحوا متاعهم، فوجئوا بأن ﴿بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فقالوا لأبيهم: ﴿مَا نَبْغِي﴾ ماذا نريد من طلبنا هذا إلا أن نحضر الطعام لأهلنا، خاصة أنهم لا يعطون طعاماً إلا بقدر حمل بعير^(١) لكل رجل، أو ماذا نريد أكثر من ذلك الكرم حتى نطيع طلب صاحب الطعام؟ قال لهم أبوهم يعقوب (عليه السلام): ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُتَوَّنَ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ لِتَأْتِنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال لهم أبوهم لن أرسل أحاكم معكم إلا أن تقسموا بالله أن تعودوا به، إلا أن تغلبوا على أمركم، فلما أقسموا قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

وبعد أن اطمأن يعقوب (عليه السلام) إلى عهد أبنائه، أوصاهم أن يدخلوا القرية من أبواب متفرقة؛ قيل خوفاً من الحسد، وقالت الآية حاجة فى نفس يعقوب، دون أن تبينها ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأنا لا أستطيع دفع قضاء الله عنكم ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ واستجاب الأبناء ودخلوا من أبواب متفرقة كما أوصاهم

(١) كلمة بعير تُطلق على الحمار وعلى الجمل، وقال بعض العلماء: إن الإبل لم تكن استؤنست فى ذلك العصر.

أبوهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تأكيد من الله أن ذلك لا يغنى عنهم منه شيئاً ﴿إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن الله يهب لبعض عباده علماً لدنياً.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴿٧٠﴾ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ﴿٧١﴾ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴿٧٢﴾ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴿٧٣﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿٧٤﴾ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴿٧٥﴾﴾

لما دخل الإخوة على يوسف (عليه السلام)، قرب إليه أخاه وأسر إليه: لا تحزن بما يفعلون، ثم فكر في وسيلة كي يستبقى بها أخاه معه ويحضر بها والديه إلى مصر، فماذا فعل؟ عندما جهز الطعام ووضعه في متاعهم ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أمر فتيانه بوضع ﴿السَّقَايَةَ﴾ ما يُسقى به، ويظهر أنها استخدمت مكيالاً، وستسمى بعد ذلك صواعاً، وهو الصاع المعروف في الكيل ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وناد مناد ﴿أَيْتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ أيتها القافلة التي تحمل الطعام على العير إنكم لسارقون. اضطرب القوم وأسرع إخوة يوسف يستفسرون قالوا: ما الذي فقد؟ قال المنادى: ﴿نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ﴾ ومن سيحضره لنا له مكافأة ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ متكفل بما وعدت. فراح إخوة يوسف يقسمون بالله أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض بالسرقة، وما هم بسارقين، فقال المنادى: ﴿فَمَا جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ فأجابوه في شريعتنا جزاء من يسرق أن يصبح عبداً عند من سرقه.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦) قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿٧٧﴾﴾

وبدأت رحلة البحث عن الصواع، فبادروا إلى أوعية الإخوة العشرة أولاً ففتشوها، ثم فتشوا رحل أخيه فاستخرجوا الصواع من عنده ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ قال الطبري: [هكذا

صنعنا ليوسف حتى يخلص أخاه من إخوته لأبيه ، بإقرار منهم أن له أن يأخذه منهم ويحتبسه في يده ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ما كان يوسف ليأخذ أخاه في حكم ملك مصر وقضائه ؛ لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك وقضائه أن يسترق أحد بالسرقة [﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إلا إذا كانت تلك مشيئة الله ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ الله هو الذي رفع يوسف (ﷺ) فعلمه تأويل الأحاديث وأتاه من الملك ، وخلصه من حسد إخوته ومن ظلمات البئر ، ومن كيد امرأة العزيز ، والله هو الذي يرفع أقواماً ويحطّ أقواماً كيفما شاء في كل مكان وزمان ، وفوق كل ذي علم من هو أعلم منه ، وهذه قاعدة قرآنية عابرة للمكان والزمان . عندئذ تبرأ أحد الإخوة أو بعضهم من أخى يوسف ، فقالوا تحت تأثير الحسد والغيرة : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى إن هذا الشقى السارق له شقيق آخر كان يسرق هو أيضاً ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ ابتلع الإهانة والافتراء ، وقال فى نفسه : ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .



﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَالُمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ .

وقال البعض الآخر من الإخوة ، بعد أن استجمعوا أنفسهم وتماسكوا أو ثابوا لرشدهم عندما تذكروا أباهم وتوسلوا ليوسف : ﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأجابهم يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ نعوذ بالله من أن نرتكب ظلماً باسترقاقنا لمن لم يرتكب إثماً ﴿ فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا ﴾ فلما بلغ بهم اليأس مده ، انفردوا جانباً وراحوا يتشاورون ، و﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ : هل نسيتم أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً ، وقد سبق لكم أن ضيعتم يوسف ، فلن أسافر معكم حتى يعلم أبى ما حدث ويحكم بما يشاء ، أو أن يتفضل الله علينا بحل من عنده ، فهو ﴿ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لا حيلة لنا إلا أن نرجعوا إلى آبائكم وتبلغوه بما حدث ، وأن ابنه سرق صواع الملك ، وأن هذا الحادث المؤسف شاهدناه وعلمناه ﴿ وَمَا كُنَّا

لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿﴾ لم تكن نعلم ما سيحدث فى المستقبل ولا نتحكم فيه ، ثم قولوا له كى يتأكد من صدقكم أن يرسل إلى مصر بمن يأتى له بالشهادة ، وله أن يسأل ويستفسر من رفقاء القافلة ليتأكد من أننا صادقون .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبِاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾

اختصر النص القرآنى الأحداث ، وانتقل مباشرة لإجابة يعقوب المكالم : بل سمحت لكم أنفسكم بشرّ ، فاللهم امنحنى الصبر الجميل الذى لا يأس فيه ولا اعتراض ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يوسف وأخويه الأصغر والأكبر ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى قدره ، ثم أعرض الأب الجريح عنهم وتمتم ﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ فزاد الضغط النفسى والعصبى على عينيه ، وكأنما أكل الحزن سواد عينيه ، ففقد البصر من شدة الحزن وكظم الغيظ ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ قالوا ليعقوب (ﷺ) والله إنك تداوم على إثارة أحزانك بتذكر يوسف حتى شارفت على الهلاك ، فأجابهم بلوعة وأسى : إنما أشكو همى وحزنى إلى الله ، وأعلم من رحمته ووده ما لا تعلمون ، ثم توجه لأبنائه قائلاً : ﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ اذهبوا يا أبنائى واطلبوا بحواسكم جميعاً يوسف وأخاه المملوك فى مصر ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فلا ييأس منها إلا الكافرون .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَأَنْتَ يَاسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾

سافر إخوة يوسف إلى مصر كما طلب أبوهم، وقابلوا يوسف وراحوا يستعطفونه بقلوب منكسرة ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيضَاعٍ مُزْجَاةٍ﴾ لا نملك إلا هذه البضاعة غير المرغوب فيها، ولكنها كل ما لدينا، وقد مسنا الجوع وهزلت أجسادنا، ونحن نعلم أن هذه البضاعة لا تساوى ما نرجوه منك، فتفضل علينا وأوف لنا الكيل فالله يثيب المتصدقين، ولم يطلبوا منه أن يخلي سبيل أخيه، كذلك لم تظهر الآيات أنهم بحثوا عن يوسف، كما طلب منهم أبوهم يعقوب (عليه السلام) . . . وهنا نظر إليهم يوسف وقد رأى علامات الفقر والجوع والكره، فقرر أن يكشف لهم حقيقته حتى يخفف من آلامهم، فقال لهم معاتباً: هل أدركتم قبح ما فعلتموه بيوسف حين أقيتموه في الحب، وما فعلتم بأخيه من بعده؟ فبهت القوم وقالوا مشدوهين: ﴿أَنْتَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ أجابهم ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قد تفضل الله علينا جزاء التقوى والصبر على المحن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾

قالوا نادمين خجولين: والله لقد فضلك ﴿اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ فقال يوسف بلسان النبوة: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (١) لا تقريع ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ثم طلب منهم أن يسافروا ومعهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم حتى ينشرح صدره ويفرح ويعود إليه بصره ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تعالوا إلى مصر أنتم وزوجاتكم وأبنائكم أجمعون .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي

(١) هذا ما قاله نبي الرحمة (عليه السلام) عندما فتح مكة التي آذته، وحاصرتها والمسلمين في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، حتى أخرجه، ثم حاربه وأرادت استئصاله ومن معه من المسلمين في بدر وأحد والأحزاب، وأرجعته من عمرة الحديبية، ثم انتهكت صلحها معه في الحديبية، فقال لأهل مكة: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴿

لما انفصلت العير عن مصر متجهة إلى يعقوب (عليه السلام)، هبت رائحة يوسف تعلن البشري، فقال يعقوب: ﴿إِنِّي لِأَجِدَ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ لولا أنكم ستسفهون قولي، فأجابوه: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ والله إنك لفي شغفك القديم بحب يوسف، فلما وصلت القافلة ومعها القميص، ألقوه على وجه أبيهم فعاد إليه البصر في الحال، وقال لهم معاتباً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ واندفع الإخوة الواحد تلو الآخر يعتذر لأبيه ﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ وبأخلاق النبوة والأبوة بادر قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وقال بعض المفسرين: إن قوله ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يبين أن هناك أوقاً مفضلة في الاستغفار ومناجاة رب العالمين، وجاء في سورة آل عمران ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ﴾ [١٧].

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴿

رحل يعقوب (عليه السلام) وعائلته إلى مصر، وساروا يسابقون الشوق حتى بلغوها، وسارع يوسف ملهوفاً فأوى ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمهما إلى صدره، وقال لهم مرحباً: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ والقول لأبويه، ولإخوته الذين تأمروا عليه، وذرايعهم ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أجلسهما على سرير العرش تكريماً ورفعة ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ سجد جميع الإخوة الأحد عشر تحية وتكريماً - وهى عادة تحية الملوك والكبراء فى زمنه - وقيل بل خروا لله سجداً، ولكن التأويل الأول يناسب حلم يوسف فى أول السورة، والتفت يوسف إلى أبيه وقال: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ هذا ما آلت إليه رؤيائى، ثم راح يعدد نعم الله عليه، من إخراجهم من السجن، إلى إحضار عائلته له ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ﴾ بعد أن أفسد الشيطان وبث الخصام

﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ثم أحاطنى الله بلطفه، حين رفضت إغراء زوجة العزيز، ثم جعلنى وزيراً على خزائن مصر، إنه هو ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ثم اتجه إلى ربه وراح يناجيه ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ وهو التصرف فى خزائن مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ سبق شرحها فى الآية السادسة من السورة فارجع إليها ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهم ومبدعهم ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ مالك أمرى فى الدنيا والآخرة ﴿تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أتى الله يوسف (عليه السلام) كل ما يبتغيه المرء الصالح: التقوى وتأويل الأحاديث، وتوج ذلك بالنبوة، ومن الحياة الدنيا آتاه الملك، فطلب من ربه ووليه فى الدنيا والآخرة حسن الخاتمة وحسن العاقبة: توفنى مسلماً، وألحقنى بعبادك الأخيار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.



﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾

يقول الله - سبحانه وتعالى - لرسوله: إن قصة يوسف من أخبار الغيب التى نوحىها إليك على لسان جبريل^(١) ﴿مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ولم تكن يا محمد حاضراً معهم حين عقدوا العزم على إلقاء يوسف فى الحب ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ

(١) ربما يقول قائل إن القصة موجودة فى العهد القديم من الكتاب المقدس، والإجابة على ذلك: نعم، هى موجودة، ولكن هناك فروق، مثل الفروق فى قصة الخلق والخروج من الجنة بين الكتابين، ومن أهم هذه الفروق: فى العهد القديم: أخبر يوسف أباه يعقوب (عليه السلام) بحلمه وهو غلام فى السابعة عشرة، وبعد ذلك طلب يعقوب (عليه السلام) من يوسف أن يذهب وراء إخوته الذين يرعون الغنم ويعود يطمئنه عليهم وفى القرآن: طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يرسل يوسف معهم يرتع ويلعب، فرفض فى البداية، ثم نزل على طلبهم فى النهاية وأرسله معهم فتأمروا عليه وألقوه فى الحب - وفى العهد القديم أنهم باعوه لقافلة من الإسماعيليين بعد أن أخرجوه من البئر - لم يذكر العهد القديم دعوة يوسف لله فى السجن رغم أنه ذكر خلال قصة يوسف أن يهوذا بن يعقوب، زنا بأرملة ابنه ثامار، وأنجب منها فارص، وذكر أن خباز فرعون قال لفرعون عن غلام فى السجن فأخرجه فرعون، بعد أن قضى يوسف سنتين فى السجن، فمثل أمام فرعون وهو فى الثلاثين من عمره - وفى القرآن أن إخوة يوسف ألقوه فى الحب فالتقطته قافلة قالت عنه إنه غلام، وبلغ أشده فى بيت عزيز مصر، ثم راودته زوجة العزيز، ودخل السجن، الذى لبث فيه بضع سنين، والبضع من ثلاث إلى سبع، وقيل إلى تسع، قبل أن يخرج للملك، وليس لفرعون، ليفسر حلمه - نصت رواية العهد القديم على أن يوسف أمر بجمع القمح ووضعه =

بِمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ كان النبي (ﷺ) يبذل كل نفسه ليؤمن الناس، المشركون في مكة، وأهل الكتاب من يهود ومسيحيين، ثم أرسل رسائله إلى الأقوام المجاورين لبلاد العرب شرقاً وغرباً - وقال سبحانه وتعالى في ذلك ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] - وهنا يقول له برغم حرصك وبذل نفسك، فأكثر الناس لا يؤمنون ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتك إلى الإيمان، فلا تحزن إن لم يؤمنوا، فما عليك إلا البلاغ للعالمين.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)﴾

كم من آية في السماوات والأرض يمر عليها البعض^(١) وقلوبهم غلف وعلى أعينهم غشاوة فيعرضون ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فأكثر الناس يؤمنون بالله خالق الكون، ثم يشركون معه آلهة أخرى في العبادة، ومنهم من يؤمن بالله إلهاً ولكن ليس رباً، فهو يستبعده من جل أمور الدنيا أو كلها، ويتبع أرباباً أخرى في مجالات حياته المختلفة، ينصاع لها كما لو كانت آلهة، وفي مثل ذلك تقول الآية ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ وجاء في الحديث عن الشرك الخفى أنه «مثل ديبب النمل» رواه أحمد والطبراني.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾

= في مخازن لمدة سبع سنوات، بينما نصت رواية القرآن على أنه أمر بترك القمح في سنبله إلا قليلاً مما يأكلون - اختلف حوار يوسف، وهو في منصب عزيز مصر، مع إخوته بعد مكيدة الصواع، فجاء في العهد القديم: من تجد معه الكأس من عبيدك يمت، ونحن نحن أيضاً عبيداً لسيدي، فقال فليكن كما تقولون. فالذى أجدها معه يصبح عبداً لى، والباقيون يكونون أبرياء. ومن ناحية اللفظ: قال القرآن عن نصيحة يوسف لتفادى السبع العجاف ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾، بينما قال العهد القديم: . . . وحلت سبع سنوات المجاعة كما أنبأ يوسف . . . وعندما عمت المجاعة جميع أرض مصر، صرخ الشعب إلى فرعون طالبين الخبز، فقال: اذهبوا ليوسف . . . ولكن وطأة الجوع اشتدت في أرض مصر، وأقبل أهل البلدان الأخرى إلى مصر.

(١) قال مصطفى محمود: إن هذه الآية إخبار بالغيب بأن البشر سيطيرون في السماوات ويمرون بآيات فيها، وذلك مثلما جاء في سورة الرحمن ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ .

هل أمنَ الناس أن يُنزل الله بهم عقوبة تغشاهم - كما فُعلَ بأسلافهم - فجأة وهم غير مستعدين؟ قل لهم يا محمد: هذه الدعوة إلى الله أقوم بها على بصيرة من ربي، هي سبيلي ومن اتبعني من المؤمنين، وأنزله رب العالمين عن أن يكون له شريك.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾

يقول تعالى: إن ستننا أن نختار رجالاً من البشر ينزل عليهم وحينا برسالتنا إلى أقوامهم في قراهم، أفلا يعتبر الناس - حين يسировون في الأرض - بما حدث للأمم قبلهم من دمار وهلاك، ويعرفون أن الدنيا فانية ويسارعون إلى الإيمان؟ وأن يتذكروا ويعقلوا أن الدار الآخرة ونعيمها للمؤمنين بالله ورسله وكتبه خيرٌ للذين اتقوا؟ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ تعددت التفسيرات في ذلك، وروى الطبرى إجابة عائشة (رضي الله عنها) على سؤال عروة: [قالت عائشة: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن بربها، إنما هم أتباع الرسل لما استأخرو عنهم الوحي واشتد عليهم البلاء، ظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾]، وقال الزمخشري: [أى كذبهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم يُنصرون (في الحياة الدنيا) والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله قد تطاولت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب. وعن ابن عباس (رضي الله عنه): وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشراً، وتلا قوله ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] فإن صح هذا عن ابن عباس، فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهيج في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية]، وقال سيد قطب: [إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتمر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة].

إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . فتهجس في خواطرهم الهواجس . . تراهم كُذِّبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه . . متى نصر الله؟ . . » ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة . من تصور الهول الذى يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس ، والكرب المزلزل الذى يرج نفس الرسول هذه الرجة ، وحالته النفسية فى مثل هذه اللحظات ، وما يحس به من ألم لا يطاق .

فى هذه اللحظة التى يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة . . فى هذه اللحظة يجىء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً :

﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فأنزل الله نصرهم فجأة ونجى الله المؤمنين الصادقين ، ولم يرد بأسه وعقابه الأليم ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وهناك تفسير آخر ، هو أن الرسل ظنوا أن آمالهم فى إيمان أقوامهم وانتصار الحق على الباطل فى حياتهم الدنيا هى آمال كاذبة .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١١)

لقد كان فى قصص الرسل وأقوامهم التى ذكرها القرآن عظة لأصحاب العقول ، ولم تكن حكايات يفترها بشر ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولكن تصديق الكتب السماوية السابقة ، وتفصيل طرق الهدى عن طريق الضلال ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

﴿الْمَر﴾ ارجع لشرح الحروف المَقْطَعَة في أول سورة البقرة . هذه هي آيات القرآن التي أنزلها الله بالحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.



﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢).

تبدأ سورة الرعد بذكر دلائل القدرة الإلهية، فتشير الآيات إلى أن الله رفع السموات بما فيها من سحاب وطبقات الجو المختلفة والنجوم والكواكب بلا أعمدة تراها العيون، ولكن بأعمدة أخرى من قوانين الفلك والحركة والطبيعة وغيرها ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو تمثيل قيام القدرة الإلهية على كل أمور الكون. قال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وارجع لشرح الآية ٥٤ من سورة الأعراف والآية ٣ من سورة يونس، والآية ٥ من سورة طه ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لإمداد الكون بالطاقة والضوء والنور، ويعلم بهما البشر حساب الأوقات اليومية والشهرية والسنوية

﴿كُلُّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجرى لوقت معلوم عندما يجمع الله الناس ليوم الحساب ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ينظم الله عوالم الكون كلها، ما ظهر منها وما بطن، ويصرفها بمشيئته وحكمته ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يبين الآيات لكم ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلكم تؤمنون بالله الواحد ولقائه يوم الحساب .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤)

بسط الله الأرض طولاً وعرضاً لمعيشة الناس ﴿وجعل فيها رواسي﴾ وجعل فيها جبلاً حتى لا تضطرب بكم حين دورانها - كما بينت الآية الأخرى ﴿أن تميد بكم﴾ [النحل: ١٥] - ﴿وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ وجعل بها أنهاراً تشربون ماءها، وتأكلون أسماكها، وتتقلون عبرها، وجعل من كل الثمرات زوجين لتكثر وتنمو وتغذى الإنسان والحيوان وتشفيه ﴿يغشى الليل النهار﴾ يغطي الليل النهار ويستتره، ثم يعود النهار بضوئه، وتتوالى العملية حتى تنتظم حياتكم بين العمل والنوم، كل هذه آيات لقوم يتفكرون ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع﴾ هناك في الأرض المساحات البور التي لا تنتج شيئاً، والجنات التي تخرج الأعناب ومختلف أنواع الزرع ﴿ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ الصنو هو المثل، أى نخيل متماثل وغير متماثل، أو نخيل لكل واحدة رأسان أو أكثر، وقيل نخلات يجمعها أصل واحد، وقيل غير صنوان أى ذو رأس واحد، تخرج ثماراً متنوعة الأشكال والأحجام والألوان والروائح والطعوم، وكما تختلف تلك النباتات، تختلف مذاقات الناس وتفضيلاتها ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ قال محمد الغزالي [ألا يستدعى التأمل أن نرى في قطعة واحدة من الأرض شجرة عنب وشجرة ليمون وشجرة حنظل وشجرة شوك تُسقى جميعاً بماء واحد، ويختلف الجنى والمذاق واللون والآخر؟ ألا يستدعى التأمل أن ترى الدودة تأكل من ورقة الثوت فتصنع حريراً؟ وتأكل منه النحلة فتصنع عسلاً؟ وتأكل منه الشاة فتصنع بعراً؟] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وكلا الدليلين (القرآن والكون) يحتاج إلى يقظة العقل ودقة الشعور، وإلا فالغفلة والبلادة لا تحيثن بخير أبداً؛ ولذلك يكثر في القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١].

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَفَنَّا لَفَى خَلَقَ جَدِيدَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

يا للعجب! أبعد كل هذه الآيات البينات، وهذه الدلائل على قدرة الله في الكون يقولون متغافلين: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَفَنَّا لَفَى خَلَقَ جَدِيدَ﴾ وهكذا ينكرون البعث وقدرة الله على إحياء الموتى؛ ذلك لأنهم ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ بداية، وأولئك الأغلال حول أعناقهم، هل الأغلال هي أعمالهم السيئة في الدنيا التي تقودهم إلى نار جهنم؟ أم هي في أعناقهم يوم القيامة؟ أم المقصود المعنيان؟ الله أعلم؟ أولئك سيُخلدون في النار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

ثم يتمادون في الكبر والجحود والتحدى، فيقولون لرسول الله: اثنتا بما تعدنا من العقوبات المهلكة، وكان من الأجدر أن يبتغوا ﴿الْحَسَنَةَ﴾ قبل السيئة، فيطلبوا العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ وقد ظهرت العقوبات التي نزلت بمن قبلهم من الأمم، ورغم كل هذا فإن ربك يا محمد ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ إذا ما تابوا وأنابوا وعادوا إلى الرشd والصواب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن أصر واستكبر استكباراً، يعرضون عن كل هذه الآيات في أنفسهم وفي الكون، ويطلبون أن ينزل الله آية حسب أهوائهم وليس بما أرسله الله لهم، فقل لهم يا محمد: إنما أنا مرسل لأنذركم بعذاب أليم لكل كفار جحود ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ عليك يا محمد الإنذار وإبلاغ الرسالة، وعلى الله الهدى والحساب.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨)
 عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

يعلم الله ما تحمل كل أنثى، حيضاً أو مولوداً، وإن كان مولوداً ذكراً أو أنثى، وصفه وعمله ورزقه وأجله، وعاقبته، ويعلم ما تنقص الأرحام وما تزيد من مدة الحيض أو الحمل أو عدد الأولاد ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وليس متروكاً عبثاً ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ يعلم كل ما غاب وكل ما خفى - ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] - يقول محمد الغزالي: [يتحدث القرآن عن عظمة الخالق في تناسل الأحياء من إنسان وحيوان وطيور وزواحف، إنها ألوف مؤلفة في البر والبحر والجو، إنها «مليارات» تتلاحق وتتكاثر، وتمرّ أجنحتها بمراحل مكتوبة محسوبة فما تنخرم سنة (فما يضطرب قانون) ولا يضطرب نظام].

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠)
 لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١)

تبين الآيات أن الله يعرف الجهر بالقول والإسرار به، وما يفعل المرء بالنهار وما يفعله مستخفياً بالليل ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ تتعاقب عليه ملائكة تحفظه بأمر الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية أحد مفاتيح فهم ما يحدث للبشر في الحياة الدنيا، وهي ترتب فعل رب العالمين على تغيير المرء لما في نفسه! فهل هناك أجل وأخطر من تغيير المرء لما في نفسه، والآية تجلّي آخر المعنى المهم في سورة الليل ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٦) ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ (٨) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٩) ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (١٠)، أما إذا ﴿أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ لإصرارهم على التكبر ورفضهم الرشد وسعيهم وراء الباطل - كما بينت الآية ١٤٦ من سورة الأعراف - فلا يملك أحد أن يرد السوء عنهم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢) وَيَسْجِبُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (١٣)

﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ رهبة حتى تتقوا غضبه، ورغبة في أن يصحب الرعد غيث ينعش الزرع، و﴿يَنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ يجمع السحب المحملة بالماء الثقيل الغزير فيعم الخير البلاد ﴿وَيَسِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ كل المخلوقات تسبح لله، وتطيعه بأن تعمل وفق قوانينه التي يسير الكون عليها، وغير ذلك من تسبيح يعلمه الله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ والملائكة جُبلت على الطاعة، والتسبيح خوفاً ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ يهلك بها من يشاء ﴿وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ والكفار يجادلون في الله وشرعه ورسله ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ وهو شديد المكايده لمن يكايده، أى شديد الأخذ والقوة لمن يعاديه .



﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَيْفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾

يتوجه له المؤمنون بالدعاء الحق، الذى يُستجاب له إذا لم يكن فيه إثم ولا قطيعة رحم، أما الذين ﴿يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من شركاء ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ إلا كمن يمد كفيه إلى الماء وهى مبسوطة إلى فمه ليشرب ولن يشرب ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وما دعاء الكافرين لغير الله إلا فى باطل زائف عن الحق ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يخضع لله من فى السماوات والأرض برضاه أم بغير رضاه، فلا يخرج أحد منهم عن قوانين الله فى الكون، وحتى عصيان الناس فهو داخل فى مجال المشيئة الإلهية بالتكليف وحرية الاختيار المحدودة التى يحاسب فى إطارها المرء على أعماله، وحتى الكافر الجاحد، تسجد أجهزة جسده المختلفة لله حين تعمل بقوانينه، وحتى عندما يضر ويبطش ويفتن ويقتل، فقد يكون يد الله التى تعاقب، أو تُمحّص وتبتلى، أو ترفع إلى درجة الشهادة - ارجع لشرح الآية ٨٣ سورة آل عمران - حتى ﴿ظِلَالُهُمْ﴾ ظل كل ما فى الأرض يزيد وينقص فى فترات النهار المختلفة، طبقاً لقوانين الله فى الكون ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ صباح مساء، فليس أتم فقط أيها البشر، سواء أكنتم تسجدون طوعاً أو كرهاً، بل أيضاً ظلالكم، ومثلها ظنونكم ومكركم وأفكاركم التى تفرحون بها وتوهمون بها تكبركم واستغناءكم، لا تخرج عن الالتزام المطيع الساجد لقوانين الله فى القلب والعقل والنفس والروح البشرية .



﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١٦)

هذه الآية تجادل المشركين بطرح الأسئلة التقريرية ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ قل: الله، وهذه الحقيقة لا يعترض عليها المشركون، فقل لهم يا محمد: لماذا اتخذتم إذن ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ تلجأون إليهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؟ قل لهم يا محمد: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾؟ كيف تسوون من يبصر الحق بالأعمى عنه، ونور الهدى فى التوحيد بظلمات الضلال فى الشرك؟ قل لهم يا محمد: فكيف جعلتم لله شركاء من الأصنام أو المعبودات الأخرى؟ هل خلقوا مثل خلق الله فتشابه خلقهم مع خلق الله، فاتخذتموهم آلهة لذلك؟ ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٧)

ضرب الله مثلين كى يتعظ البشر، أما الأول فهو المطر الذى نزل من السماء، فسال الماء وَكَوْنٌ ودياناً مختلفة فى السعة والضيقة لينتفع منها الإنسان والحيوان والنبات، إلا أن هذا السيل الجارف يحمل من شدة الجيشان زبداً على وجه الماء مثل «الرغاوى» ﴿رَابِيًا﴾ مرتفعاً متفخاً على وجه السيل، ولكنه لا ينفع ولا يضر. كذلك المعادن مثل الذهب والفضة والنحاس التى تُوقدُ عليها النار لتطرد الخبث منها، ويصنع الناس من الباقي الخالص النقى حلياً أو متاعاً مفيداً، ويعلو هذا المعدن المنصهر زبد لا ينفع ولا يضر ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ كذلك يفصل الله الحق عن الباطل، فيذهب الزبد ويبقى الحق الذى ينفع الناس ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١٨)

الذين يستجيبون لدعوة ربهم وأوامره فلهم ﴿الْحَسَنَى﴾ المثوبة الحسنی، أى الجنة، أما الذين لم يستجيبوا ففى الآخرة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ ليخلصوا أنفسهم من سوء العاقبة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يُقْضَوْنَ الْمِيثَاقُ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصُلُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقِبَى الدَّارِ (٢٢)﴾

لا يستوى من يعلم أن القرآن منزلٌ من عند الله، ومن هو أعمى لا يبصر هذه الحقيقة ولا يتذكرها، إنما يتذكر هذا أصحاب العقول، الذين يوفون بعهده الله الذى أخذه عليهم - الآية ١٧٢ من سورة الأعراف - ولا ينقضون ذلك ﴿الْمِيثَاقُ﴾، ثم هم حريصون على صلة كل ما أمر الله بوصله، من ذوى الأرحام، ومن إخوانهم من المؤمنين، ومن البشر بصفة عامة، وفى ذلك جاء الحديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخارى ومسلم، «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس» رواه الطبرانى فى «الصغير» ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فلا يعصونه؛ لأنهم ﴿يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فى الدنيا والآخرة، وهم الصابرون على ما أصابهم؛ لأنهم يدركون أن ذلك ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وهم حريصون على إقامة الصلاة بما تأمر به وتنهى عنه وتذكرهم بالله، مداومون على الإنفاق فى سبيل الله ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ويدفعون السيئة بالحسنة، والإساءة بالإحسان، والظلم بالعمو الجميل، أولئك عاقبتهم خير فى الدار الآخرة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾

أولئك يدخلون مع من صلح من آبائهم، وأزواجهم، وأبنائهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ العدن تعنى الإقامة، ثم صارت جنات عدن علماً للجنة التى لن يريد أحد إنهاء إقامته فيها، وتأتيهم الملائكة من كل جهة ومجال، بسلام الله، جزاء صبرهم ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾

أما أولئك الذين نقضوا عهدهم مع الله ، وقطعوا ما أمر الله بوصله ، وأفسدوا في الأرض ، فعليهم اللعنة ولهم سوء الدار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الله يوسع الرزق في الدنيا لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، ومن يتسع رزقه فعليه أن يعرف ذلك ويحمد الله عليه ، ويطمع في رزق الآخرة الذي هو أوسع وأبقى ، أما من يقول فرحاً ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فسيطغى ويكفر .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ (٢٩)﴾

أولئك الذين كفروا ، يتعنتون بطلب آية بعد كل آيات الله في السماء والأرض وفي أنفسهم ، فقل لهم يا محمد : إن الله يضل من يشاء ، ممن يجحدون ويسألون الآيات تعنتاً ، أما من رجع إلى الله من أولئك الكفار ، فالله يهديه - كما جاء في الآية ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن : ١١] - ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ تنشرح وتهلأ وتسكن بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ذكر الله يطمئن القلوب المضطربة بما يحدث في الدنيا من عزائم الأمور . هؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ بُشِّرْ لَهُمْ ﴿وَحَسَنُ مَثَابٍ﴾ مأبهم إلى الجنة ورضوان الله .

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلَوَّ عَلَىٰهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠)﴾

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد إلى أمة من الناس قد ﴿خَلَتْ﴾ مضت من قبلها أم أخرى ، لتبلغهم رسالتنا حسبما أنزلنا عليك وحيناً ، ولكنهم ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يكفرون بالله ،

فلا تحزن، وقل لهم إن الله ربى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ عليه أعتمد وألجأ وأتوكل، إليه مرجعى ومرجعكم جميعاً.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّمُ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾

قال الزمخشري: [قيل إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله (ﷺ): سِيرَ بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فتتخذ فيها البساتين والقطائع، وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع فى يومنا، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة، أو ابعث لنا به (أى بالقرآن) رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا، فنزلت (الآية)] ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ لو أن قرآنًا أدى إلى تسيير الجبال وتقطيع الأرض (قطع مسافات الأرض فى التنقل والسفر) وتكليم الموتى، لما آمنوا به - كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١] - ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ على معنيين، أحدهما: بل لله القدرة على كل شىء، وهو قادر على الآيات التى اقترحوها، ولكن ليس ذلك ما يريده خالق الأكوان وخالق تلك النطف الخصيمة، والثانى: أن الله قادر على أن يجبرهم على الإيمان، ولكنه أقام الدنيا على أمانة التكليف بحمل الخلافة، وبمنح البشر حرية الاختيار ﴿أَفَلَمْ يَيْئَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أفلم يتبين للذين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ ولا يزال الذين كفروا تنزل بهم المصائب جزاء أفعالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو تنزل المصائب قريبهم، فهذا إنذار لهم ولن حولهم من القرى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ إن الله لا يخلف الميعاد.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَآمَلْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ (٣٢)﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ (٣٤)﴾

وإذا كان الكفار يسخرون منك ومن رسالتك يا محمد، فقد سبق أن استهزأت أم من قبلك برسلهم ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فأمهلت الذين كفروا ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فانظر كيف كان عقابي أليماً ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وهل تشركون بالله، قيوم السماوات والأرض، ومنه تكسب كل نفس حياتها، هل تشركون به ما زينته لكم أنفسكم من آلهة، بمكركم وصدكم عن سبيل الله؟ فبينوا حجتكم في تلك الآلهة، أم أنكم تنبئون الله بما لا يعلم من شركاء في الأرض؟ ومن يضلله الله بسبب تكبره وجحوده فلن يهديه أحد، وله عذاب في الدنيا، مهما بدا من تنعمه وتقلبه فيها، وعذاب الآخرة أشد، ولن يقيه من الله أحد.



﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُي أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَتَابُ (٣٦)﴾

أما المؤمنون الذين اتقوا عصيان الله، فجزاؤهم جنة ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ﴾ طعامها لا ينقطع ولا يمتنع، كذلك ظلها، أما عاقبة الكافرين فجهنم وبئس المصير ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من أهل الكتاب من يفرح بما أنزل الله إليك من القرآن، خاصة من أسلم منهم، وقد عددهم كل من الزمخشري والبيضاوي بثمانين رجلاً من النصاري، أربعون بنجران وثمانية باليمن واثان وثلاثون بالحشة، بالإضافة إلى عبد الله ابن سلام وكعب وأصحابهما من يهود المدينة، فيقارب العدد مائة، وأضاف البيضاوي: [أو عامتهم، فإنهم كانوا يفرحون بما وافق كتبهم] ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ﴾ ومن أهل الكتاب، ومن غيرهم، من ينكر بعض الآيات التي تعارض هواه، فلا تحزن وقل لهم: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ ورسالتى أن أدعو الناس لذلك، وكلنا راجعون إلى الله.



﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾

أنزل الله القرآن بلسان عربى مُبين ليسهل على العرب حفظه وفهمه وإبلاغه للناس جميعاً^(١) والحكم به فى شئون حياتهم ﴿وَلَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ قال الطبرى: ﴿وَلَنْ اتَّبَعَ﴾ يا محمد ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أهواء هؤلاء الأحزاب، ورضاهم ومحبتهم، ما لك من يقيقك عذاب الله، بينما قال الزمخشري: [هذا من باب البعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب فيه، وإلا فكان رسول الله (ﷺ) من شدة الشكيمة بمكان]، وكذلك قال الشوكانى: [الخطاب لرسول الله (ﷺ) تعريض لأمته] أى المقصود بالخطاب أمته ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ فالله قد أرسل رسلاً من قبل كإبراهيم، وموسى وداود وسليمان وغيرهم عليهم الصلاة والسلام، وكانت لكل منهم زوجات وذرية ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تعنتت قريش، كما تعنتت أقوام قبلها، فى التذرع بحجج وطلبات على هواها حتى تؤمن، وأظهر القرآن سنة الله فى إرسال الآيات، فإذا لم يؤمن بها من حضرها، أهلكهم الله، وبين القرآن إن إرسال الآيات هو بإذن الله وليس فى تناول رسول من نفسه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل أمر قضاء من الله - تعالى - فى كتاب، وقال الشوكانى: [قال الفراء: فيه تقديم وتأخير، والمعنى: لكل كتاب أجل: أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ووقت معلوم، كقوله تعالى ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مَسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم] ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى هذه الآية، فقال الزمخشري: [ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته، أو يتركه غير منسوخ، وقيل يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة، ويثبت إيمانهم وطاعتهم . . . والكلام فى نحو هذا واسع المجال]، وأوجز البيضاوى قائلاً: [ينسخ ما يستصوب نسخه ويثبت ما تقتضيه حكمته]، وقال الشوكانى: [ظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شىء مما فى الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر، وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة، وقيل يمحو ما يشاء من الرزق، وقيل من الأجل، وقيل من الشرائع، وقيل من ذنوب عباده، وقيل يمحو ما يشاء من الأرواح التى يقبضها حال النوم، فيميت صاحبها ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه، وقيل يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها، وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة، وقيل غير ذلك مما لا حاجة لذكره، والأول (العموم) أولى]، وليس هناك ما يقيد القدرة والمشيئة الإلهية فى عمومها فى الآية، والله أعلم. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وعنده أصل الكتاب، أى اللوح المحفوظ.

(١) واستمر حياً باللغة العربية - أو استمرت اللغة العربية حية به - ولم تصبه الترجمة بآثارها الضارة.

﴿وَأَن مَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠)
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ﴾ (٤١)

ولئن أريناك يا محمد ما سينزل بالمشركين والكفار من الحساب والعقاب، أو قبضنا روحك قبل ذلك، فإنما عليك إبلاغ الرسالة، وعلينا حساب الخلق ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ خاطب القرآن الناس في عهد النبوة، لافتنا نظرهم إلى نقصان الأرض من أطرافها. أول بعض المفسرين القدامى ذلك بانتشار الإسلام ونقص أراضي الكفر، وذلك التأويل يصح حتى اليوم، فانتشار الإسلام مستمر في العالم، من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، ويمكن تأويلها اليوم بأن مساحة اليابس - تنقص ومساحة الماء تزيد بسبب ارتفاع درجة الحرارة وذوبان ثليج القطبين، ولكن هل لذلك علاقة بدفع الناس للإيمان؟ أو إنزال العقوبة بالمكذابين؟ الله أعلم ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد ولا مبطل لحكم الله إذا حكم ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلِمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارَ﴾ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)

وقد مكرت الأقوام السابقة برسلها كما تمكر قريش بك يا محمد، ولكن مكر الله محيط بهم؛ وهو يعلم ما تفعله كل نفس، وغداً يعلم الكفار ﴿لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارَ﴾ ولا يزال الكفار يتكبرون ويجحدون رسولهم ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قل كفى بشهادة الله لى، ومن أتاه الله الكتاب من اليهود والنصارى، أو من أتاه الله علم القرآن، الذى هو مصدق لما قبله ومهيمن عليه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾

﴿الر﴾ ارجع لشرح الحروف الْمُقْطَعَة في أول سورة البقرة . أنزلنا إليك القرآن يا محمد لتخرج الناس ، بإذن ربهم ، من ظلمات الجهل والشرك إلى نور التوحيد وصراط ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ واهب العزة لمن يريد ، ومانعها عمن يريد ، يحمده عبده المؤمنون ، مالك ما في السماوات وما في الأرض ، والويل لمن يكفر به ، فالعذاب الأليم ينتظره ، أولئك الكافرون الذين ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ ، وهو استفعال من المحبة ، أى أنهم يصنعون تلك المحبة للحياة الدنيا أكثر من الحياة الآخرة ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، ويفضلون الحياة المنحرفة عن الصراط المستقيم ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾

(*) إلا الآيتين ٢٨ ، ٢٩ فمدنيتان .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ يخاطبهم بلغتهم التى يفهمونها ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أولئك الذين جسدتهم الآية ١٤٦ من سورة الأعراف ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لسعيه وراء الهداية - كما جاء فى ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (٦) ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْعِسْرِ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨) ﴿وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى﴾ (٩) ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْعِسْرِ﴾ (١٠) [الليل] - ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذى يُعْزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى تصريفه لأُمُور الكون، يهب الحكمة لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أرسلنا موسى بحججنا إلى قومه ليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وذكرهم بالعبر فيما مضى من بداية خلق آدم وحواء، ثم خروجهم من الجنة، وما أرسل الله من رسل لأقوامهم، فنجا البعض بالإيمان وضل البعض بالتكبر والجحود، وبأيام الله القادمة، من بعث وحساب، ثم عقاب أو ثواب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فى هذا التذكير عبرة وعظة للصابرين على الدنيا والساكرين الله على نعمائه .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨)

وراح موسى (عليه السلام) يذكّر قومه بنعم الله عليهم، فلقد أنجاهم من فرعون وآله، بعد أن كانوا يذيقونهم العذاب الأليم ويذبحون الذكور و﴿يَسْتَحْيُونَ﴾ النساء لهن، وهذا هو البلاء بعينه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ قال الزمخشري: [فى تَفَعَّلَ (تأذّن) زيادة معنى ليس فى أفعَلَ (أذن)، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيداناً بليغاً تتنفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه] ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ هذه النعم ليزيدنكم من فضله ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وإذا جحدتم نعم الله، فإن عذاب الله شديد، وينطبق هذا على جميع البشر فى كل زمان ومكان ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ جاء فى الحديث القدسى «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم؛ ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم؛ ما نقص ذلك من

ملكى شيئاً، وإنما هى أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكُم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم.



﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

ألم يصل إليكم أيها المنكرون للرسل والكتاب أخبار الأمم السابقة التى أهلكها الله عندما أصرت على التكبر والجحود مثل قوم نوح وعاد وثمود ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والأقوام الذين جاءوا من بعدهم ولا يعلمهم إلا الله ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل ضحكاً واستهزاءً، وقيل غيظاً وضجراً مما أتت به الرسل، وقيل كأنهم بتكبرهم وجحودهم ورفضهم استخدام ما حباهم الله به من فطر وعقول ومدارك، عادوا كالأطفال الجُهَل يضعون أصابعهم فى أفواههم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.



﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

ورد الرسلُ باستفهام استنكارى: أتشكون فى خالق الكون، كل ما يطلبه منكم أن تؤمنوا به، ويمهلكم لتحسنوا أعمالكم قبل انقضاء آجالكم، وتعملوا صالحاً ليغفر لكم ذنوبكم ويؤخر حسابكم حتى يوم البعث؟ فأصروا على الجحود قائلين: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وإن كنتم صادقين فأتوا بحجة واضحة. قال الزمخشري: [جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية اقترحوها تعنتاً ولجاجاً].



﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١٢)

ورد عليهم الرسل قائلين: حقيقة نحن بشرٌ مثلكم، ولكن الله يتفضل فيختار من عباده من يكلفه بالرسالة، وليس في طاقتنا أن نأتيكم بحجج تريدونها بخلاف ما أرسلنا الله بها، وعلى الله يتوكل المؤمنون، وكيف لا نتوكل عليه وقد تفضل علينا بالهداية ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ وعلى الله وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٣) وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ (١٤)

تمادى الكفار في غيهم حتى قالوا لرسولهم: إن لم تعودوا في ملتنا وتعبدوا ما نعبد ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ فأوحى الله لرسوله ألا تخافون، فسيهلك الظالمون، وسترتلون أرضهم وديارهم، ما دمتم تخافون اليوم الذي تقفون فيه أمامي للحساب، وتخافون من وعيدي بعقاب الظالمين.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (١٥) مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيٍّ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (١٧)

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ طلبوا الفتح، أي النصر من ربهم، قيل طلبه الرسل ومن معهم من ربهم، وقيل طلبه أعداء الرسل، كما طلبت قريش أن تنصرها آلهتها على محمد (ﷺ) ومن معه، ولا مانع أن يكون الكل طلب النصر من إلهه، وحلت الخيبة بكل جبار عنيد، يشرب في جهنم من الصديد الذي يسيل من جلده وجلود أهل النار، يشربه قسراً وكرهاً، ولا يكاد يبتلعه، يأتيه ما يجلب الموت من كل مكان حوله، ولكنه لا يموت ليستمر عذابه الغليظ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاشَأُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

إن مثل الكفار وما يعملون في الدنيا كرماد بعثرته الريح الشديدة في يوم عاصف، لا بقاء له ولا فائدة منه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾. انظروا إلى قدرة الله في خلقه السماوات والأرض بالحق تعمل وفقا لسنة الله، وتدعو أصحاب الفطر والعقول والمدارك السليمة للتوحيد، ولا يصعب عليه أن يستأصل الكفار والمشركين والمنافقين ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مختلف في إيمانه وصلاحه.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ﴿٢١﴾﴾

ويوم الحساب، يقول ضعاف الشخصية من التابعين والإمعات للجبابة والقادة المتكبرين: إننا كنا في الدنيا نتبع أقوالكم وأوامركم ونهيكم، فهل دفعتم عنا العذاب؟ قالوا: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أجابوا بالحجة التقليدية للخاسرين، لو أراد الله هدايتنا لفعل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ﴾ ليس لنا مهرب، سواء تملكنا الجزع والرعب أو استسلمنا صابرين لسوء المصير.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

قال الشيطان لما انتهى أمر الدنيا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أما أنا فقد ﴿وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وعدتكم وعد الباطل ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ لم تكن لي عليكم حجة

ولم أجبركم على شيء ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ﴾ أغريتكم فاستجبتم لى ﴿فَلَا تُلْمُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِى﴾ لا تتحججوا بلومى فاللوم عليكم ، لا أستطيع إنقاذكم من مصيركم ، ولا تستطيعون إنقاذى من مصيرى ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِى مِنْ قَبْلُ﴾ تنكرت الآن من كل أنواع شرككم التى اتخذتموها فى الدنيا باسمى ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أما الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، فقد أدخلوا ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِى أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمة الطيبة هى كلمة الحق بموازين الله ، التى تنفع قائلها ، وتنفع أسرته ومجتمعه وأمته ، والعالم ، عندئذ تكون كالشجرة الطيبة أصلها ضارب فى الأرض ، راسخة بجذورها الطيبة ، يسمو فرعها ويعلو فى السماء ﴿تُؤْتِى أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ تخرج ثمرها فى كل وقت ، وثمار الكلمة الطيبة يجدها المؤمن فى الدنيا كما يجدها فى الآخرة ، وتلك الكلمة الطيبة تستلزم عملاً طيباً ؛ لئلا يكون صاحبها من المنافقين الذين يقولون ما لا يعلمون - ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف] - أما الكلمة الخبيثة ، فهى كالشجرة الخبيثة ، لا بقاء نافعاً لها فى الأرض ولا قرار . يثبت الله الذين آمنوا فى الدنيا ثبات الشجرة الطيبة ، فيقولون كلاماً طيباً ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، أما المتكبرون الظالمون ، فإن الله يزيدهم ضلالاً فوق ضلال ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾

ألا تتعجب أيها السامع من المشركين الذين غيروا الحمد والشكر على نعم الله إلى كفر، وقادوا قومهم إلى جهنم دار الهلاك، واتخذوا من أهوائهم آلهة يعبدونها أنداداً لله، ويضلون بها عن سبيله، قل لهم يا محمد تمتعوا قليلاً بمتع الدنيا الزائلة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ .

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١)

قل يا محمد للمؤمنين أن يحرصوا على إقامة الصلاة على وجهها الصحيح في مواقيتها، وأن يتموا أركانها، وأن يعملوا بما تأمرهم به وتنهاهم عنه طبقاً للآية ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، سراً حتى لا يُخرج المُتَصَدِّقُ عليه، وعَلَانِيَةً حتى يشجع الآخرين على الإنفاق - ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ - وليسارعوا قبل أن يدرکہم الموت ويأتى يوم الحساب الذى ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ لن تنفع أموال الدنيا وممتلكاتها فى شراء الحسنات أو دفع السيئات ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ ولا أصدقاء أخلاء ينفعونهم .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤)

خلق الله الإنسان، وكلفه بخلافته على الأرض، وسخر له ما فى السموات والأرض لتنظيم حياته ويتمكن من القيام بالتكليف الإلهى، وأعطاكم من كل ما سألتموه مما يصلح أحوالكم، وإن تعدوا نعم الله عليكم من ميلادكم حتى متوفاكم ما استطعتم أن تحصوها ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ - فطبيعته ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظُلْمٌ لِيَطْغَى﴾ (٦) أن رآه استغنى [العلق] - إلا من رحم الله .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾

إبراهيم (عليه السلام) خليل الرحمن وأبو الأنبياء، كان كثير المناجاة لربه، فدعاه قائلاً ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ رب اجعل مكة المكرمة بلداً آمناً ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وجنبني واعصمني أنا وأبنائي من عبادة الأوثان، وكل ما يحرفنا عن عبادتك ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ رب إن تلك الأصنام، وما وراءها من معتقدات باطلة وأهواء متبعة قد تسببت في إضلال كثير من الناس ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من اتبع هداي وأصبح من الموحدين فكأنه بضعة مني، أما من عصاني فإني أطمع له في غفرانك ورحمتك ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ رب إني أسكنت إسماعيل ابني وأمه هاجر عند بيتك المحرم، في واد عديم الزرع، لماذا؟ ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بما تأمر به، وبما تنهى عنه، وبما تذكركم بالله^(١) ﴿فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ واستجاب الله دعاء خليله، فجاء المسلمون

(١) تسرب لثراث المسلمين من الإسرائيليات ومن الكتاب المقدس بعهديه أن إبراهيم (عليه السلام) أبعد زوجته هاجر وابنه إسماعيل (عليه السلام) بسبب نزاع أو غيرة سارة من هاجر، والآية واضحة في المهمة التي كلف بها رسول الله وأبو الأنبياء (عليه السلام) ابنه إسماعيل (عليه السلام). من ذلك التكليف الإلهي بدأت كراهية كتابة التوراة لإسماعيل (عليه السلام) وأولاده وأحفاده، وبدأ طمسهم وتشويههم لكل ما يخصهم، ونذكر هنا في عجلة أن سفر التكوين ذكر ثلاث مرات ابنك الوحيد إسحاق (عليه السلام)، في قصة ابتلاء إبراهيم (عليه السلام) بذبح ابنه، ولم يكن هناك ابن وحيد لإبراهيم (عليه السلام) سوى إسماعيل (عليه السلام)، لأنه الابن البكر، ثم يتذرع البعض بأن إسماعيل (عليه السلام) لا يحتسب لأنه ابن جارية، فكأن ذلك الافتراض يلغي وجوده، وتناسى من قال ذلك أن ثلاثة من أولاد يعقوب (عليه السلام)، أي ريع أولاده، أبناء جاريته، ونسوا أن أحفاده أصبحوا عبيداً في مصر لفرعون، ولم يلغ أي من ذلك وجودهم، كذلك هناك السبى الآشوري والسبى البابلي لبني إسرائيل، وكان من بين السبى أنبياء، فلم ينقص السبى شيئاً من قدرهم ولا أحالهم عدماً. بل الأسوأ من ذلك ما حرقه أولئك الكتابة من أن يهوذا [ابن يعقوب (عليه السلام)] زنا بأرملة ابنه ثامار وأنجب منها فارص، وزارح- التكوين ٣٨: ١٢-٣٠، ومنه جاء داود (عليه السلام)، ثم حرقوا على رسول الله داود (عليه السلام) أنه زنا بزوجة أوريا أحد جنوده، ثم تزوجها فأنجبت له سليمان (عليه السلام). - صموئيل الثاني ١١، ١٢: ١-٢٤، والأشعر والأدهى من كل ذلك، النسب الذي حرقه كاتب إنجيل متى، أو مترجمه، عندما نسب المسيح (عليه السلام) إلى فارص... ثم سليمان من التي كانت زوجة لأوريا- متى ١: ١-٦. ومن يريد الاستزادة يمكنه أن يقرأ تحت عنوان: لعن كنعان ومباركة سام في سفر التكوين الإصحاح ٩: ٢٠-٢٩ بداية كراهية الكتابة لكنعان.

ليصلوا في الكعبة، ويتموا مناسك الحج والعمرة، ويعبدوا رب الكعبة ويستغفروه ويحمدوه، ويحملوا الثمرات ومختلف التجارات إلى مكة، ويشكروا الله على نعمه، إلى يوم الدين.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنْ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾
 (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴿

ويستمر الخليل إبراهيم (عليه السلام) في مناجاة ربه: ربنا إنك لا تخفى عليك خافية، في صدورنا أو في الأرض أو في السماء، ثم راح يحمد الله على أن تفضل عليه بالذرية الصالحة بعد أن بلغ منه الكبر عتياً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ ابن هاجر المصرية ﴿وإِسْحَاقَ﴾ ابن سارة^(١)، إن الله ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، ثم استأنف دعاءه ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فما أجمل هذا الدعاء وأيسره على كل مسلم، يدعو الله كما دعاه أبو الأنبياء، خليل الرحمن، حتى يهبه الله المواظبة على الصلاة هو وذريته، وإقامة الصلاة تعني الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وذكر الله، الذي يعنى طاعته والعمل في سبيله ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ بالاستجابة له، ثم يدعو الله بأن يغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين يوم الحساب.

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾
 (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً (٤٣) ﴿

لا تظنن يا محمد - وبالتالى كل مسلم - أن الله يمهل الظالمين عن غفلة عن نواياهم وأعمالهم، إنما يؤخرهم ليوم الفصل الذى ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ تثبت فيه الأبصار للأمام من هوله فلا تلتفت ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعى بذلة وانكسار ﴿مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ﴾

(١) تفيد موسوعة بريتانكا أن سارة أصلها من جنوب الجزيرة العربية، وقد هاجرت قبيلة أجدادها الأوائل إلى العراق حوالى ١٥٠٠ ق. م، كذلك هاجرت قبائل أخرى فى ذلك الوقت من الجزيرة العربية واستوطنت الشام ودلتا مصر.

رافعيها مديمى النظر للأمام فلا يلتفتون يمنة ولا يسرة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا تطرف أجفانهم ﴿وَأَفْنَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ قلوبهم جوفاء خالية من أى اطمئنان أو رباطة جأش أو فهم .

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ (٤٤) وَكَانَتْكُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥)﴾

وأندر الناس جميعاً يا محمد حتى يتذكروا ويعملوا صالحاً قبل أن يأتى يوم الحساب ، فيعترفوا بظلمهم ويدعوا ربهم طالبين تأجيل الحساب والعودة للدينا حتى يؤمنوا بالله ويتبعوا الرسل ، فيأتيهم الجواب ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ ألم تغتروا بالدينا وزينت لكم أنفسكم التمتع بها وكأنها دار خلود ، فأصبح حالكم كمن يقسم على بقاء حاله فيها دون زوال ، واطمأنتم للدينا كما أطمئن لها الذين سبقوكم فى التكبر والجحود ، برغم ما بيناه لكم من عقابنا لهم ، وبرغم ما ضربناه لكم من أمثال .

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾

هؤلاء الظالمون ﴿مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ فى الإضلال والصد عن سبيل الله ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ والله محيط بهذا المكر قادر على إبطاله ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ رغم أن هذا المكر يكاد يهد الجبال ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ فلا تظن أن الله يخلف وعده بالبعث والحساب ، والمقصود بالخطاب صحابة الرسول (ﷺ) ، ومن بعدهم من المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ الجنب ، غالب على أمره ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ يوم ينفخ فى الصور ، وتبدل الأرض والسماء وتقوم الموازين الحق للأعمال والحساب ، ويبعث البشر ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ليجازى كلاً بعمله .

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾

وترى المجرمين يوم الحساب مغلولين بالقيود لباسهم من القطران، اسود اللون نتن الرائحة، تغطي وجوههم النار، هذا هو جزاء ما كسبت أيديهم في الدنيا، ليعلموا أن الله ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وأن الدنيا سريعة الزوال . هذا القرآن ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ ليعملوا به ﴿لِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ لينذروا من أراد أن يتذكر من أصحاب العقول، وليوقنوا أن لا إله إلا الله .
